القهـــوة

للدكتور احمد زكى استاذ الكيمياء بكلية العلوم

جمال الدين ابو عبدالله محمد بن سعيد الذبحانى شيخ من أشياخ اليمن عاش فى منتصف القرن التاسع الهجرى (منتصف القرن الخامس عشر الميلادى) وكان متوليا رياسة الأفتاء بعدن ، تعرض عليه الفتاوى فيقر منها ما يراه صوابا ويصحح ما احتاج منها إلى تصحيح . عرض له أمر أقتضى خروجه من عدن إلى بر الاعاجم ، وأغلب الظن انه الحبشة ، وعاش فى أهله دهراً يشرب معهم شراباً لم تعرفه الأعارب ، فلما رجع إلى عدن مرض فتذكر الشراب فأحضر شيئا من ذلك الحب وحمصه وطبخه بالماء كما كان يطبخه الأحباش ، فخف عنه المرض وذهب عنه السوء ، ووجد فيما وجد من خواصه انه يذهب بالنعاس والكسل ويكسب البدن خفة ونشاطاً . وكان من أمر الشيخ بعد هذا أنه سلك طريق التصوف فصار هو وغيره من الصوفية يستعينون بهذا الشراب الجديد على السهر وقيام الليل فى التعب والاذكار ، واسموه القهوة ، ومن ثم انتشر شرب القهوة فشمل الفقهاء والعوام ، هؤلاء يستعينون بها على مدارسة العلوم ، واولئك للمثابرة والمجالدة فى معالجة الصناعات والفنون . وباغت القهوة مكة فشربها بعض الأشياخ والقضاة وإرتاب فيها أئمة آخرون ، أما من شربها فرآها شراباً حلالا طيباً مما أخرجته الأرض بأذن الله ، والله يقول « خلق لكم ما فى الأرض جميعاً » واما من أباها فرآها شراباً حراما مسكراً يحصل بشربه ضرر فى الأبدان والعقول ، وكان لهم فى ذلك جدل طويل وحجاج مستفيض انقلب إلى محنة وفتنة ، وكثر التعصب لها وعليها من الجانبين ، وشاع التقاطع والتدابر بين الفريقين ، وبلغ الغضب بنفر من الأتقياء الصالحين البررة الأطهار أن حدثوا عن رسول الله ﷺ أنه قال من شرب القهوة يحشر يوم القيامة ووجهه أسود من أسافل أوانيها

ولم يهل القرن العاشر الهجرى حتى ظهرت القهوة فى مصر ، وكان أول ظهورها فى الجامع الأزهر برواق اليمن ، فكان اليمانيون ومن ساكنهم من أهل الحرمين وبعض العامة يجتمعون للأذكار والمدائح على طريقتهم كل ليلة اثنين وجمعة ، فتقدم اليهم القهوة فى ناجود كبير من الفخار الأحمر ، وكان يغترف منها النقيب بسكرجة صغيرة ، ويسقيهم الأيمن فالأيمن ، وهم على الذكر عاكفون ، وكانت تذهب بالكسل والنعاس عنهم ، فكانوا لا ينصرفون حتى يصلوا صلاة الصبح مع الجماعة من غير عناء ولا تكلف . وانتشرت فى الناس فاجتمعوا على شرابها فى بيوت خاصة بها وفى الاسواق

ومن هذا العهد ظلت القهوة بين مكة والقاهرة تحل عاما وتحرم عاما . يناهضها حكام وفقهاء ، ويشايعها حكام وفقهاء ، تباح فتشرب فى الحرم الشريف جهراً ، وتمنع فيعزر شاربها ويطاف به فى الأسواق ، ويكبس العسس بيوتها ويخرجون من فيها على حالة شنيعة ، بعضهم فى الحديد وبعضهم فى الحبال ، فيسجنون ويجلدون .

ولا شك أن المعارضين للقهوة كان منهم أناس يخلصون لها الكراهة فى ذاتها لما كانوا يرون من أثرها السيء فيمن أدمنها من عامة الناس ، فكثير منهم من تغيرت حواسه وساء عقله وتنكرت هيئته

ولأنها كانت تباع فى أماكن على هيئة الحانات يجتمع فيها الناس من رجال ونساء بالدف والرباب ، أو بالشطرنج والمنقلة ، وغيرها يلعبونها للميسر ، فساء الاتقياء هذا المنظر القبيح ، ووقع مشهده من قلوبهم موقع سوء

وكان من الناس من يدس الخمر فى القهوة فزادت كراهتها عند العارفين بذلك .

أما الحكام ممن كرهوا القهوة ، فكانت أغلب كراهتهم من اجتماع الناس على تلك الصورة ؛ وأوجسوا من هـذا التجمهر خيفة . ولما كان حفظ النظام من أوجب واجبات السلطان ، ولما كانت الفتنة من عمل الشيطان ، كان لابد من قتلها قبل أوانها ، وذرء بوادر السوء قبل استفحالها .

ولعل أقوى من ناصر القهوة فى هـذا الصراع مشايخ الصوفية فى كل البقاع الاسلامية : أحبوا الذات الالهية وفنوا فيها وتغزلوا وشببوا بها ؛ وكأن الغزل لا يحلو إلا بالصهباء ، والتشبيب لا يكون إلا مع بنت الحان ، فاتخـذوا من القهوة خمرهم ، ومن فناجينها كؤوسهم ، وذكروها وأكثروا ذكرها فى أشعارهم ، فقال ابن الفارض « سقتنى حميا الحب . . . » وقال آخر من الأولياء الصالحين يصفها :

شرابُ أهل الله فيهـا الشفا ... لطالب الحكمـة بين العباد
نطبخها قشراً فتأتى لنـا ... فى نكهة المسك ولون المداد
فيها لنـا تبر وفى حانها ... صحبـةُ أبناء الكرام الجياد
كاللبن الخالص فى حـله ... ماخرجت عنه سوى بالسواد

وقال آخر :

وقهـوة لا غم تُبقى اذا ... قابلك السـاقى بفنجانها
لا يوجـد الغم بحـاناتها ... قـد خضع الغم لسلطانها
بمائها نغسـل أكدارنا ... ونحرق الهم بنـيرانها
يقول من أبصر كانونها ... أُفٍّ عـلى الخمر وأدنانها

ولم تكد تستقر القهوة فى الشرق العربى حتى تسربت الى أوربا عن طريق القسطنطينية والبندقية فى القرن السابع عشر الميلادى . وأنشىء أول مقهى فى انجلترا عام ١٦٥٢م ، ولم تلق القهوة فى الغرب ترحاباً خالصاً كله ، فقـد قامت فى وجهها معارضة شديدة على نحو ماعانته فى الشرق . ففى ألمانيا كان لابد لتحميص البن من رخصة يعطيها الحاكم ، وفى انجلترا حاول شارل الثانى أن يحرّم المقاهى باعتبارها مراكز للقلاقل الثورية والنزعات الحادة السياسية . ولكن القهوة شاعت برغم ذلك ولعبت فى الحياة الاجتماعية الأوربية فى القرن السابع عشر فالذى يليه دوراً ذا خطر كبير . ومن أوربا انتشرت القهوة فى كل بلاد الله ، وكانت اليمن مصـدر البن الوحيد الى مختتم القرن السابع عشر ، فأصبح بعد ذلك يزرع فى بقاع كثيرة من أفريقية الحارة ، وفى الهند الغربية ، وفى الهند الشرقية ، ولاسيما فى البرازيل فهى البلد الذى ينتج الآن نحواً من ثلثى محصول العالم ، والبن له كالقطن لمصر ، وربما كان أشد خطراً .

والبن بذور لثمر شجرة دائمة الاخضرار ، قد تطول إلى ستة امتار والسبعة فى منابتها الطبيعية ، ولكنها تقصر عن ذلك كثيراً إذا هى زرعت ، ولهذا الشجر زهر أبيض ناصع يكتسى به عنـد ازدهاره ، فيكون له رونق وجمال يزيد فيها ما ينفح منه من عطر وطيب ، لذتان للعين والانف لا يطولان ، فعمر الزهر بالغ فى القصر . إلا أن الشجر يزدهر مرتين وثلاثا وأكثر من ثلاث فى العام الواحد . وتطيب الثمرة بعد ازدهارها ببضعة أشهر ، فيحدث من ذلك أنك تجد على الشجرة الواحدة ثمرات من ازدهارات متلاحقة ، بعضها وليد وبعضها بالغ . والثمرة خضراء وهى فجّة ، فاذا أخذت فى النضوج اصفرّت ثم تستحيل إلى لون أحمر قرمزى شديد . وتجنى الثمرة باليد انتقاء أو تترك حتى تسقط من الشجرة بهزها . وهى بعد ذلك تجفف بفرشها على الأرض فى الشمس الحارة ، وقد تترك حتى تجف على أغصانها . ثم يزال عن بذور البن القشر فالذى يليه من غشاء شديد اللصوق بالبذور كان لبًّا فجف وانضمر وذلك بالدق الخفيف فى الهواوين ، أو بضرب البذور بالمطارق . وحتى الفرك باليدين يكفى لتخريجها . وهذه طريقة اليمن وما جاورها من البلاد ، ولكن بالبرازيل طرق أحدث من هذه لا تستدعى تجفيف الثمرة بل تدهك بالآلات دهكا فتفصل البذور بذلك عن لب الثمرة الطرى

ثم تحمص البـذور على ما هو معروف فى اسطوانات دوارة فوق النار فتفقد بذلك مقداراً من وزنها لا يزيد على الخمس ، والمفقود ماء وبعض أبخرة تنشأ من تحلل الدهن

والسكر الذى بالبذر وشىء من الأصل الفعال بالبن المسمى « بالقهوتين » وحرارة التحميص يجب ألا تزيد على ٢٠٠° درجة مئوية بكثير وإلا فقد البن الكثير من عطره . واذا انتهى تحميصه وجب الاسراع فى تبريده . ثم يطحن بعد ذلك . ويجب ألا يطحن البن بل ألا يحمص قبل طبخه بزمن طويل فانه يفقد عطره سريعاً ، ويجب كذلك حفظه فى أوانى مغلقة فانه شديد الامتصاص للأبخرة والروائح كريهة كانت أو عاطرة فيمتص رائحة الجاز والجبن الفاسد .

وأهم أغراض التحميص اثنان : أولها توليد الطيب فيه وتوليد النكهة التى تُشهّى القهوة إلى النفوس ، فالبن الأخضر خال منهما ، وثانى الأغراض تهشيش الحب ليسهل دقه ، فالأخضر جامد مستعص ، والتحميص صناعة لا يحذقها إلا القليلون

ويحتوى البن على مواد كيماوية عدة منها عطر ودهن ، وهو كالشاى يحتوى التنين والقهوتين الذى إن شئت أسميته الكافيين وأن سئت فالشابين ، وهو الأصل الفعال فى القهوة والشاى كليهما ، ومن أجله يُشربان ، وهو لا يتغير فى القناة الهضمية وانما يُمتص كما هو فى الدورة الدموية فيذهب إلى المخ فيكون له الاثر المحمود على نحو ما فصل فى مقالة الشاى السالفة : من زيادة فى قوة الفكر واصابة الحكم وامتلاك النفس ، ولكن استحالة الافكار إلى أفعال قد تتعطل به ، فيعترى الانسان تردد ، وذلك ليقظة العقل الشديدة ، ويزيد حس الانسان بكل ما سر وساء ، وهو ينعش الجسم ويزيل التعب عضليا كان أو نفسياً ، ويؤخر النوم ويدر البول . هذه بالطبع فوائد كلها قد تنقلب مضار بزيادة المشروب من القهوة ، فالقهوتين عُقار سام يصحب التسمم به تلهف إلى الماء وألم فى المعدة والأمعاء ، وقىء شديد وإسهال ودوار فى الرأس وإرتعاد فى الأطراف . ويتضح أثر القهوتين من حالة رجل أدخل مستشفى « بلڤ » بنيورك به أعراض شديدة من سوء فى الهضم بالغ ، وفقر دم متناه ، وعجز تام عن الحركة ، وأزمة فى القلب بالغة ، وضيق فى الصدر شديد . كان هذا الرجل يشرب فى اليوم ٣٠ فنجانا من الشاى بلا طعام ؟

سباع البحر كادت تكسب الحرب

مات فى الأسابيع الماضية القبطان الأنجليزى « ودوارد » مات فى بلدة « رامزجات » بانجلترا وله من العمر ٨٢ سنة . وهو الرجل الذى خطر له فى مدة الحرب أن يجرى تجربة عُدّت فى أول الأمر عرضا من تلك الأعراض التى تأتى للانسان وقد أشتد خياله واحتدوتهيأ لدخول البيمارستانات ، ولكنها عدت فى آخر الأمر تجربة لو ساعدها الحظ لأنهت الحرب وحقنت الدماء ولو بغلبة فريق على فريق

تلك التجربة هى رياضة سباع البحر على تتبع الغواصات الألمانية ، وهذه السباع تشبه عجول البحر غير أنها أكبر منها ، وله عُرف بيّن وآذان كبيرة وحظ من الذكاء وافر

بدأ هذا الرجل باستئذان السلطات الحكومية ، والسلطات فى العادة مرتابة حذرة جامدة محافظة ، ولكن خطر الحرب يحرك الجامد ويذهب بالحذر ، فاذنت له وحشرت اليه مافى البحر من آساد ، فبدأ بدراسة الأصوات التى تصوتها الغواصة فى الماء ، ثم اجتهد فاخترع آلة تئز مثل أزيزها ، وفى بحيرة راض هذه الآساد على إتباع هذا النغم أين سار فى الماء ، فاصبحت تتبعها أحسن اتباع ، ووفاقت فى دلالتها على اتجاه الغواصة كل الآلات الطبيعية المعروفة ، ووضعت على رءوس هذه الحيوانات البحرية كمامات من اسلاك الحديد تمنع أسماك البحر أن تقترب منها حشية أن تسترعى انتباهها فتحيد عن غرضها ، ونجحت التجربة نجاحاً باهراً . ولكن . . . عرف الألمان ذلك بطريق الوحى أو الايحاء فأجروا غواصاتهم مثنى وثلاث ورباع فهوشوا على السباع الاذان ، وخيبوا التجربة للقبطان

فى الصيف

للدكتور طه حسين

يبيعه شباب القرش لفائدة مشروعهم

اطلبه من جمعية القرش ٤٥ شارع عابدين تليفون ٥٧٢١٦

ثمن النسخة ١٠ قروش وللجملة ثمن خاص